المنهجية النقدية في تفسير الطبري وأثرها على المفسرين

إعداد الباحث:

سعد سعد مسعود الأحمد

قسم الشريعة الإسلامية ـ كلية دار العلوم

جامعة القاهرة

البريد الإلكتروني: Dr_Saad_Alahmad@hotmail.com

الملخـــص

تناولت في هذا البحث الإمام الطبري كعلم من أعلام التفسـير موضـحا ما رزقه الله – عز وجل- به من صـفات أهلته لتكوين ملكة التفسـير والبراعة فيه والنقد في آن واحد وقد ترك الطبري -رحمه الله- مجموعة ثمينة من المؤلفات التي كانت حصـيلة ما منَّ الله به عليه من علم وفهم من أهمها سفره العظيم جامع البيان في تأويل آي القرآن. وقد بينت منهج الإمام الطبري في النقد، فقد كان عادة ما يقوم ابن جرير الطبري بالإتيان على الآية المراد تفسـيرها فيقول مصـدرا الكلام بقوله: "القول في تأويل قوله تعالى.." ثم يذكر الآية المراد تفسـيرها ثم يذكر أحد الأقوال في تأويلها، ويورد بعدها بإسـناده القائلين بهذا القول من الصـحابة أو التابعين أو أئمة التفسـير ويصـدر الكلام بقوله: "ذكر من قال ذلك.."، وبعد ذلك يقوم بالترجيح بين الأقوال ويرجح قولًا على قول وهكـذا. انطبع مـا برع فيـه الطبري من العلوم والفنون على تفسـيره فمن تأمل تفسـيره وجد من حسـن الترتيب والتأليف ما لم يتوفر لغيره، كثير ممن جاء بعد الطبري اقتبس من فنياته في تفسـيره، اعتمد الطبري في تفسـيره على مصـادر كثيرة جدًا ومتنوعة من تفاسير وكتب أحاديث وتاريخ وسير ولغة وهذا ما ظهر لنا من كثرة مروياته. وقد اعتمد الطبري في تفسـيره طريقة منهجية مطردةً لا يكاد يحيد عنها يمتاز الطبري عن غيره من المفسـرين بأنه يفسـر الآية بعبارة سـهلة، وبأسـلوب مختصـر يوضـح فيه المعنى المراد نائيًا بالتفسير عن العبارات التي يشوبها شيءٌ من الغموض.

وبيان أنه غالبا ما يكون اسـتطراد الطبري لغاية ما، ومن أهم هذه الغايات نقد الأقوال الضـعيفة أو لترجيح قول ما ونصـرته، وقد امتاز الطبري -رحمه الله- في تفسـيره بالحس النقدي العالي وهذا من أبرز ملامح تفسيره. وقام الطبري في تناوله للأقوال المختلفة ليس بنقد الظاهر من الأقوال التفسـيرية فحسـب بل إن نقده تعدى ذلك بمراحل ليشـمل التفسـيرية وعلومها الآراء الاعتقادية ومخرجاتها، والفقهية وذيولها، والأصولية وفروعها إلى آخر ذلك من العلوم لاسيما إذا كان أصحابها أئمة متبعين.

الكلمات المفتاحية: الطبري – المنهجية النقدية – الترجيح – التفسير– ابن كثير.

The Critical Approach of Al- Tabari's Interpretation and its Impact on Interpreters

By: Saad Saad Masoud Al-Ahmed
Department of Islamic Sharea
Faculty of Dar Al-Uloom
Cairo University
E.MAIL: **Dr_Saad_Alahmad@hotmail.com**

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

Abstract

The researcher has handled Imam Al- Tabari as one of the pioneers of interpretation shedding light upon his talent as a genius interpreter and critic at the same time. Al- Tabari has left behind a collection of precious books which contain the fruit of what he innately inherited. The most important book was his great interpretation entitled "*Jamea Al-Bayan Fi Tafsir Aye Al-Qur'an*", translated as "A Collection of Statements on Interpretation of the Verses of the Holy Qur'an". Al-Tabari's approach of criticism has been displayed as he used to handle the specified verse by stating it then launching his interpretation by referring to a certain statement which interprets the verse at hand. Afterwards, Al-Tabari narrates a chain of the men who believed in the mentioned statement. That chain includes prophet's companions, followers and leading interpreters. Al-Tabari used to commence his speech by "Referring to those who said that …" Next, Al-Tabari examines the statements to find out which the most authentic. Thus, one could easily find traces of the sciences and arts which Al-Tabari excelled in through his interpretation. For example, those who examined his interpretation would find that it is more organized and authorized than any other interpretation. A great deal of Al-Tabari's followers has technically quoted his methodology. In his interpretation, Al-Tabari has relied on many various books of interpretation, Hadith, history, biographies and language something that tested through his multiple narratives. Al-Tabari has applied a

monotonous approach in his interpretation. What makes Al-Tabari a distinguished interpreter is the succinct phrase and simple words he utilized to interpret the Qur'anic verses rather than using ambiguous statements. Mostly, Al-Tabari's digression is counted on a certain purpose and one of those important purposes is to criticize weak statements or to support and side with one of them. Al-Tabari, May Allah have mercy on him, excelled in mastering the critical sense in his interpretation of the Holy Qur'an. In handling the various statements, Al-Tabari did not only criticize what was apparent but his criticism far exceeded that phase to include the explanatory sciences, their jurist views, their outcomes, jurisprudence and its related schemes, fundamentalism and its branches…etc.

Key words: Al-Tabari, *Jamea Al-Bayan* "A Collection of Statements", explanation, interpretation, interpreters.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه و رسولُه.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ)، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا)، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١)، **ألا إن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي نبينا محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.**(١)

أما بعد:

فإن من نعم الله – تبارك وتعالى – على هذه الأمة، أن جعل فيها أئمة يحملون لواء العلم خلفا عن سلف، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فيرفعون عن كاهل الأمة أثر الغفلة، ويرتفعون بها من دركات الجهل والتخبط إلى درجات العلم والبصيرة، سائرين في ذلك على خطى رسلهم وأنبيائهم، وقد حكى الله لنا جملة من أخبارهم وقصصهم في القرآن العظيم، فأخبرنا ﷻ عن أصحاب نوح عليه السلام الذين آمنوا معه بعد أن ظل في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وقص الله لنا قصة موسى عليه السلام وأصحابه الذين آمنوا به وتبعوه، وكفروا بفرعون وعبادته، وقص الله لنا خبر عيسى عليه السلام وحواريه الذين أيدوه وآمنوا به ونصروه.

ثم جاء الله بخاتم الأنبياء وسيدهم محمد صلوات ربي وسلامه عليه الذي أقام به الدين

(١) ينظر: صحيح مسلم، كتاب الجمعة، برقم: ٨٦٧ .

المتين وشرعه القويم، فقام به على أكمل وجه، فبلغ الله به رسالته وأتم على خلقه نعمته.

ولكن لما كان رسولنا ﷺ بشر، وكان الموت نصيبه وانتهاء الأجل حليفه ولا شك خيره ربه جل وعلا بين البقاء فيها إلى يوم القيامة وبين جوار ربه الكريم فاختار الثانية.

فكان لزاما وقد ختم الله به الرسالات أن يقوم مقامه من الناس من يحفظون عنه هذا الإرث العظيم وأعني بذلك الكتاب والسنة، وليس المقصود كما يتصور البعض حفظ نصوصهما لأن هذا الفعل مما تكفله الله بنفسه في محكم التنزيل فقال جل وعلا: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) [الحجر:٩]، فحفظ نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المظهرة التي هي بمنزلة الشرح له مما تكفل الله به، لكن مقصودنا من القيام هنا هو قيام من نوع آخر قيام لحفظ معانيهما وتفسيرهما والعمل بهما وبمقتضياتهما، بعيدا عن التحريف والتخريف والتهريف، فاصطفى الله له الصحابة الكرام كما اصطفى سبحانه الرسل والأنبياء من الناس، فكانوا كما قال الله عنهم: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) [الفتح:٢٦].

فكان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون القرآن وفق أصلين رئسين أحدها شرعي والآخر لغوي، فأما الشرعي فهو فهم القرآن وفق ما نزل به من مصطلحات خاصة وأحكام شرعية محكمة بأصول التشريع، ومن الجانب اللغوي فإن القرآن ولكونه نزل بلسان عربي مبين فعلى هذا الاعتبار كانت نصوصه لابد وأن تفهم وفق ما نزل به من لغة.

ودليل الأصل الأول: قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل:٤٤]، فجعل النبي ﷺ هو المبين لمراد الله – ﷻ –.

وأما دليل الأصل الثاني: فهو فعل الصحابة عند كتابة المصاحف ففي صحيح البخاري[1] قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ذلك»، فكل ما يفهم من معاني القرآن إما راجع لأحد

(١) ينظر: صحيح البخاري، باب نزل القرآن بلسان قريش برقم: ٣٥٠٦ .

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

هذين الأصلين أو لمجموعهما معا.

ولما كان هذان الأمران مما قد يقع فيهما الخلاف بين المفسرين بحسب حوزتهم على أصول العلوم وفروعها أحببت أن أقوم بدراسة علمية تبين التمايز بين المفسرين في النقد والتوجيه، فوقع اختياري على أهم تفسير في نظر جمهور المفسرين ألا وهو تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري.

خطـــة البحـــث: تنقسم هذه الدراسة إلى مقدمة وأربعة مباحث على النحو التالي:

مقدمة: وفيها تمهيد

المبحث الأول: التعريف بالمؤلف.

المبحث الثاني: منهجه في التفسير.

المبحث الثالث: منهجه في النقد.

المبحث الرابع: أثر منهجه النقدي على التفاسير الأخرى.

خاتمة البحث، وفيها أهم نتائجه.

الفهرس.

المبحث الأول
التعريف بابن جرير الطبري

اسمه وشهرته:

عدّ العلماء الطبري أبا التفسير، كما عدوه أبا التاريخ [1] أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، الطبري، وقيل: يزيد بن كثير ابن غالب، صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، ولد سنة (٢٢٤ه) كان إمامًا في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك، وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحدا، وكان ثقة في

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب. إمام المفسرين. ولد بطبرستان، وبدأ في طلب العلم في السادسة عشرة من عمره، ثم رحل إلى بغداد واستقر فيها، بعد أن زار عدة بلدان، أثنى العلماء على الطبري كثيرًا، فقالوا: إنه ثقة عالم، أحد أئمة أهل السنة الكبار، يؤخذ بأقواله، ويُرجع إليه لسعة علمه، وسلامة منهجه. ترك عدة مؤلفات نافعة أبرزها تفسيره الكبير جامع البيان عن تأويل آي القرآن المشهور بين الجمهور بتفسير الطبري. وهو أول تفسير كامل وصل إلينا، أفاد منه كل من جاء بعده، ولهذا عدّ العلماء الطبري أبا التفسير، كما عدوه أبا التاريخ؛ لأن له كتابًا كبيرًا في التاريخ لم يؤلَّف مثله، إلا أنه لم يلتزم فيه بالتوثيق. وسماه تاريخ الأمم والملوك، وله أيضًا: تهذيب الآثار وغير ذلك.

تنظر ترجمته في: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ص٣٧٥، عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل طاشْكُبْري زَادَهْ (ت ٩٦٨هـ)، طبعة دار الكتاب العربي – بيروت، وينظر: طبقات المفسرين ص٣٩٢، لأحمد بن محمد الأدنهوي من علماء القرن الحادي عشر، بتحقيق: سليمان بن صالح الخزي، طبعة مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م ، وممن أُطلق عليه هذا اللقب كذلك محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي المشهور بابن العباس التلمساني، ينظر ترجمته في: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (٥٤٧ هـ)، لأحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، أبو العباس (ت ١٠٣٦هـ)، بتحقيق: د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، طبعة دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، ومن ثم اصطُلح عند أهل العلم لا سيما المتأخرين منهم بإطلاقه على محمد بن جرير الطبري دون غيره اتفاقًا.

نقله، وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها، وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء [١] في جملة المجتهدين وذكره ابن الصلاح ضمن فقهاء الشافعية [٢].

وقد كان شافعيا أول أمره ثم أصبح مجتهدا وأصبح له مقلدون يعرفون بـ"الجريرية"، وذكره العبادي في " الشافعية "، وقال: هو من أفراد علمائنا، وما رأيناه من ذكره في هذا القسم متعين، فإن له مذهبًا ينفرد به، معروفا به.[٣]

ولشهرته وعلو شأنه -رحمه الله- كان الناس يعرّفون بصحبته لهم فيقال: صاحب محمد بن جرير الطبري [٤]!، وقد اشتهر بتفسيره العظيم المسمى بـ "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" وهو أقدم تفسير يصل إلينا كاملا، وقد أودع فيه رحمه الله خلاصة علمه وفهمه وثمرة علمه، والذي ينظر فيه يعلم تمام العلم مدى إحاطته بكثير من العلوم انطلاقا من ذكره لأصول التفسير وقواعده وعلوم القرآن من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وعلم القراءات وغيرها وعلم الحديث النبوي والآراء الفقهية والاجتهادات والترجيحات يقول رحمه الله:

"ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معانيه منشئون إن شاء الله ذلك، كتابا مستوعبا لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعا، ومن سائر الكتب غيره في ذلك

(١) ينظر: طبقات الفقهاء، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي ت ٤٧٦هـ، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور (ت٧١١هـ)، بتحقيق: إحسان عباس، طبعة دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.

(٢) ينظر:طبقات الفقهاء الشافعية ١/ ١٠٧، عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ)، بتحقيق: محيي الدين علي نجيب، طبعة دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

(٣) ينظر: طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح ١/ ١٠٧.

(٤) ينظر: غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة، خلف بن عبد الملك ابن بشكوال (ت٥٧٨هـ)، بتحقيق د. عز الدين علي السيد ومحمد كمال الدين عز الدين، طبعة: عالم الكتب، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ ه.

كافيا، ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه"[1]، وكذلك إحاطته بعلوم العربية المختلفة والمتنوعة، ولم يكن لابن جرير الكتابة في التفسير والتأليف فيه لولا تضلعه بهذه الأخيرة والإحاطة بها ومن ذلك إجادته للشعر والكتابة فيه ، ومما جاء عنه في ذلك أنه أنشد أصحابه من نظمه:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي وأستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظ لي ماء وجهي ورفقي في مطالبتي رفيقي

ولو أني سمحت ببذل وجهي لكنت إلى الغنى سهل الطريق [2]

من أشهر مؤلفاته

١. تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، مطبوع بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية.

٢. تهذيب الآثار وهو مطبوع عدة طبعات، قطعة فيها جزء من آخر مسند علي -رضي الله عنه- في مجلد، ثم قطعة فيها جزء من مسند ابن عباس -رضي الله عنهما- في مجلدين، ثم قطعة فيها جزء من مسند عمر -رضي الله عنه- كلها بتحقيق محمود محمد شاكر -رحمه الله- طبعتها مطبعة المدني بالقاهرة، ثم طبع جزء مفقود منه بتحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، فيه مسند عبد الرحمن بن عوف ثم مسند الزبير بن العوام -رضي الله عنهما- فهذا هو الموجود بين أيدينا من هذا الكتاب، وقد طبعته دار المأمون للتراث، دمشق - سوريا، في طبعتها الأولى: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٧ .

(٢) ينظر: تاريخ بغداد وذيوله ٢/ ١٦٣، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت هـ ٤٦٣) ، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، بتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الطبعة الأولى: ١٤١٧ه.

٣. المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين، وهو مطبوع طبعته مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان ١٩٣٩ – ١٣٥٨هـ.

٤. كتاب (الشذور) [١].

٥. تفسيره المشهور "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" وهو من أعظم ما ألف في التفسير ، بل إن المفسرين عيال عليه في تفسيره هذا، وهو مطبوع ثلاث طبعات: الأولى : طبعة دار الفكر بيروت-لبنان ١٩٨٤ – ١٤٠٥هـ، والطبعة الثانية: بتحقيق أحمد محمد شاكر طبعتها مؤسسة الرسالة وكانت الطبعة الأولى منها سنة: ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م، والطبعة الثالثة بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، وطبعته دار هجر، الطبعة الأولى، – ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، وغيرها من المؤلفات التي ليس هذا مكان بسطها والحديث عنها وما فيها من الفنون والكنوز والعلوم المختلفة ، وإنما أردت هنا فقط الإشارة إلى شيء من تراثه –رحمه الله– .

توفي محمد بن جرير الطبري –رحمه الله– يوم السبت بالعشي، ودفن يوم الأحد بالغداة ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة في داره لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠هـ، توفي –رحمه الله– ولم يغير شيبه، وكان السواد في شعر رأسه ولحيته كثيرا،[٢] وليس هذا ببعيد على الله بإكرام أهل القرآن فأهل القرآن في رعاية الله ما داموا معه كيف وقد حفظ الله به تفسير كتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

---

(١) ينظر: بغية الطلب في تاريخ حلب ٣/ ١٤٤٦، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة ابن العديم العقيلي ابن العديم (ت٦٦٠ه)، بتحقيق: د. سهيل زكار، طبعته دار الفكر.

(٢) ينظر: تاريخ بغداد وذيوله ٢/ ١٦٣.

المبحث الثاني

منهجــه في التفســير

قبل الكلام عن منهجيته النقدية يجدر بنا الكلام عن منهجه حتى يتسنى لنا تصور طريقته في النقد، عادة ما يقوم ابن جرير الطبري بالإتيان على الآية المراد تفسيرها فيقول مصدرا الكلام بقوله: "القول في تأويل قوله -تعالى-.." ثم يذكر الآية المراد تفسيرها ثم يذكر أحد الأقوال في تأويلها، ويورد بعدها بإسناده القائلين بهذا القول من الصحابة أو التابعين أو أئمة التفسير ويصدر الكلام بقوله: "ذكر من قال ذلك.."، وبعد ذلك يقوم بالترجيح بين الأقوال ويرجح قولًا على قول وهكذا.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق:٥]، قال رحمه الله:"وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ اختلف أهل التأويل في الحاسد الذي أُمر النبي ﷺ أن يستعيذ من شر حسده به، فقال بعضهم: ذلك كل حاسد أمر النبي ﷺ أن يستعيذ من شر عينه ونفثه. ذكر من قال ذلك. وذكر قتادة بن دعامة السدوسي وعطاء الخراساني، ثم ذكر قولا آخر فقال: وقال آخرون: بل أمر النبي -ﷺ- بهذه الآية أن يستعيذ من شر اليهود الذين حسدوه. ذكر من قال ذلك....وذكر من المفسرين ابن زيد، ثم رجح بين القولين رحمه الله بقوله: " وأولى القولين بالصواب في ذلك، قول من قال: أمر النبي -ﷺ- أن يستعيذ من شر كل حاسد إذا حسد، فعابه أو سحره، أو بغاه سوءا"(١).

فلم يكتفِ رحمه الله بمجرد سرد الأقوال، وإنما بالترجيح بينها هذه. هي طريقته في تفسيره هذا كله من أوله إلى آخره، وهذا يدلنا على عدة أمور منها:

١. علم المؤلف وسعة اطلاعه.

٢. تحريه للصواب من أقوال المفسرين.

---

(١) ينظر: جامع البيان ٢٤/ ٧٠٥ .

الإنصاف بذكر جميع الأقوال أو الأوجه في تفسير الآية وهذا ما يميز تفسيره وذلك من خلال تمكين الناظر من معرفة الأقوال المختلفة في تأويل الآية، وهذا على العكس من التفاسير التي تذكر قولا واحدا وتتعصب له أو تذكر أقوالا ثم تدافع عن قول مذهبها كما مر معنا في أحاديث الأحكام، وقد يلاحظ في تفسيره الاستطراد بذكر هذه الأقوال المسندة، والذي هو في الحقيقة مفيد غالبا، كما أنه لا يكتفي بذكر الأقوال المتعددة في التفسير، بل لوحظ أنه يستخدم هذه التعددية في علوم القرآن كالقراءات مثلا فهو يذكر القراءات في الآية ويرجح بينها أو يوفق بينها.

كما تراه يذكر مذاهب البصريين والكوفيين في الآي، ومن أمثلة ذلك ما ذكره من اختلاف القراءة في هذه الآية بين من يقرأها "ساحر" وبين من يقرأ "سحر":(إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾)[المائدة:١١٠]، قال رحمه الله بعد أن ذكر مذهب أهل المدينة والبصريين وما يقول الكوفيون (١):

"والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، متفقتان غير مختلفتين، وذلك أن كل من كان موصوفا بفعل"السحر"، فهو موصوف بأنه"ساحر"، ومن

(١) ولم نعد نسمع اليوم في النحو بأن هذا مذهب البصريين أو اختيار الكوفيين لعدة أسباب ولانقراض هذا التعصب عدة أسباب منها ما ذكره الأديب الطنطاوي -¬- إذ يقول: " فبعد موت العصبية وانقراض المتأثرين بها رجعوا إلى تقدير المذهب البصري والتنديد بالكوفي والحط من حججه، فابن الشجري يقول في أماليه (المجلس السادس) عند القضاء في المناظرة السابقة بين الكسائي والأصمعي وقد عرفت ما فيها ما لفظه "ولنحاة الكوفيين في أكثر كلامهم تهاويل فارغة من الحقيقة"، فهذا حكم يعطينا صورة صادقة عن عزوف المتأخرين عن المذهب الكوفي، وقد سلفت الإشارة إلى شيء من هذا عند الموازنة بين المذهبين" (ينظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ص ١٥١، للشيخ الأديب الأريب محمد الطنطاوي رحمه الله، بتحقيق أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى:(٢٠٠٥م – ١٤٢٦هـ).

كان موصوفا بأنه"ساحر"، فأنه موصوف بفعل "السحر"، فالفعل دال على فاعل هو الصفة تدل على موصوفها، والموصوف يدل على صفته، والفاعل يدل على فعله، فبأي ذلك قرأ القارئ فمصيب الصواب في قراءته"(١).

فهو هنا لا يكتفي بذكر الاختلافات والترجيح بينها كما بينا ذلك سابقًا فحسب، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك في كثير من الأحيان وهو التوفيق بينها كما رأينا في المثال السابق، وقد جمعت له رحمه الله من تفسيره أكثر من ثلاثين تفسيرا وقراءة يجمع بينهما بحجة اتفاق المعنى ودلالتها على معنى واحد في بحث لي غير مطبوع بعنوان جامع الإجماعات التي ذكرها الإمام الطبري في تفسيره وما في معناها يقع في قريب المائتي صفحة يسر الله إخراجه.

وأما فيما يتعلق بطريقته في التفسير وأصوله في تأويل الآية ذاتها فإنه يستخدم طريقة تأويل القرآن بالقرآن، وهذه من أعلى أنواع التفسير كما مر معنا من كلام ابن كثير ومن ذلك ما ذكره عند تأويل سورة الفاتحة: "القول في تأويل قوله: (صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ)...وذلك نظير ما قال ربنا جل ثناؤه في تنزيله: (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩) [النساء٦٦:٦٩](٢).

ثم بعد ذلك يلجأ إلى تفسير القرآن بالسنة النبوية إذا لم يجد في القرآن ما يعضد تأويل الآية المقصودة ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند قوله -تعالى-: (سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ) [البقرة:١٤٢] قال رحمه الله: "حدثني المثنى قال: حدثنا النفيلي قال: حدثنا زهير قال: حدثنا أبو إسحاق عن البراء: أن رسول -الله ﷺ- كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده -

(١) ينظر: جامع البيان ١١/ ٢١٧ .

(٢) ينظر: المصدر السابق ١/ ١٧٧ .

أو أخواله – من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى صلاة العصر ومعه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم ركوع فقال: أشهد لقد صليت مع رسول الله قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان يعجبه أن يحول قبل البيت، وكان اليهود أعجبهم أن رسول الله -ﷺ- يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب(١)، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك"(٢).

وهذا يبين مدى عنايته بالتفسير النبوي وبيان أسباب النزول بما صح من السنة النبوية الصحيحة، وبعد ذلك يلجأ إلى تفسير الآية بما روي عن الصحابة إذا لم يجد ما يصح الاستدلال به في الباب من تفسير القرآن بالقرآن أو ما جاء عن النبي -ﷺ-، ومن ذلك تفسيره الصراط بالطريق لما صح عنده في ذلك عن ابن عباس-رضي الله عنهما- (٣)، فإذا تعددت لديه الأقوال يذكرها جميعها ويرجح أو يوفق بينها وما وقع فيه الإجماع يذكره بل إنه قد يذكر الإجماع مستدلا به على مسائل أخرى كما فعل في تفسيره قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف:١٦٥].

قال رحمه الله: "وأولى هذه القراءات عندي بالصواب قراءة من قرأه: (بئيس) بفتح الباء، وكسر الهمزة ومدها، على مثال "فعيل"، كما قال ذو الإصبع العدواني:

حنقا علي وما ترى لي فيهم أثرا بئيسا

لأن أهل التأويل أجمعوا على أن معناه: شديد فدل ذلك على صحة ما اخترنا"(٤)، والطبري مع

(١) هكذا أوردها الطبري في تفسيره وقوله: "وأهل الكتاب" وهي معطوفة على اليهود أي أن أهل الكتاب أعجبهم كذلك.

(٢) ينظر: جامع البيان ٣/ ١٣٤، وأصل الحديث في صحيح البخاري.

(٣) ينظر: المصدر السابق ١/ ١٧٥ .

(٤) ينظر: جامع البيان١٣ / ٢٠١ .

كل ما سبق يهتم اهتمامًا واضحًا بذكر المذاهب النحوية كما ذكرنا والأحكام الفقهية وأقوال الفقهاء واختلافاتهم ويستنبط الأحكام بما يراه موافقًا للصواب من خلال اجتهاده.

المبحث الثالث

منهجـــه فـي النقـــد

بعد أن تناولت بشـي من التوضـيح النقاط والملامح الرئيسـة لمنهج الطبري في التفسـير وذكرت شـيئا من الطرق التي يسـلكها في تفسـيره للقرآن الكريم يجدر بي هنا بيان منهجيته في النقد، وقد يسأل سائل لماذا الطبري دون غيره، أقول وبالله التوفيق: ذكرت الطبري مثالًا ونائبا دون غيره عن شكل التفسير بعد المائة الثانية لعدة أسباب:

السبب الأول: أن جامع البيان من أقدم التفاسير التي وصلت إلينا كاملة فليس ثمة تفسير تناول تفسـير كل آيات القرآن الكريم من الفاتحة إلى الناس مثل ما فعل صـاحبنا الطبري، بل إنه قد كتب فيه مقدمة يؤصـل فيها علوم القرآن والتنزيل فجاء تفسـيره على توفيق من الله وعلى طراز فريد من نوعه لا سيما مع تقدمه الزمني.

السبب الثاني: ومن الأمور التي أوقعت الاختيار عليه دون غيره كذلك طريقته المبتكرة نوعا ما في التفسير إذا ما قُورن بين ما كتبه الطبري وما كتبه المفسرون في عصره بل ممن بعده نجد بونًا شاسعا من حيث الشمولية في التفسير المتمثلة في ذكر القول ثم ذكر قائله بالإسناد ثم ذكر قول آخر وذكر قائله ثم الجمع أو الترجيح أو الاجتهاد ، وهذا ما لم يشـابهه أو يوازيه فيه أحد من مفسري عصره مع الإتيان على كل آيات الكتاب استيعابًا، وهذا ما قطعه على نفسه في مقدمة تفسيره إذ يقول: " ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معانيه منشئون إن شاء الله ذلك، كتابا مسـتوعبا لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه، جامعا، ومن سـائر الكتب غيره في ذلك كافيا، ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم، وموضـحو الصـحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه"[1].

السـبب الثالث: الأثر العظيم التي تركه الطبري في التفاسـير الأخرى فقد كانت لطريقته في

(١) ينظر: مقدمة جامع البيان ١/ ٧ .

التفسير والنقد الأثر البالغ على كثير من المفسرين الذي جعلوا من أقوال الطبري في التفسير مستندا قويا لصحة أقوالهم ورجحانها دون غيرها، كما سيأتي معنا لا سيما ابن كثير، فمع أن الطبري قد سبق غيره في جانب النقد إلا أنه قد أحسن وأبدع المسلك في ذلك.

السبب الرابع والأهم: علو حسه النقدي منذ أن بدأ في تأليف تفسيره وقد أبان عن ذلك في مقدمة تفسيره فكان مما قال -رحمه الله- وكما مر معنا قبل قليل قوله: "ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه"[1]، فأبان منذ الوهلة الأولى لتأليفه أن من أسباب تأليفه لهذا الكنز العظيم إيضاح صحيح الأقوال من ضعيفها في التفسير والكف عن مآخذ الأقوال الرديئة فيه، ولقد جاء كتاب الطبري مليئًا بهذه الأمثلة وسنأتي على شيء منها سواء في دراسته أو عند الحاجة إلى مقارنة أقوال غيره من المفسرين.

هذه الأسباب وغيرها والتي ليس هذا موضع بسطها والكلام حولها هي التي جعلت من جامع البيان نموذجا يحتذي به الكثير ممن جاء بعده من المفسرين، ويكفينا هنا الإشارة إلى أشهرها، وأهمها، وهذه الأسباب أو غيرها كلها دائرة في الأصل على كلمتين هما: "حسن التأليف، والإبداع فيه"، وأما بالنسبة إلى ما قصدناه من خلال هذا المبحث وحتى يتضح لنا طريقة الطبري في النقد ونستشف كيانها لابد لنا من ضرب أمثلة حية يظهر فيها حقيقة تكييف هذه الطريقة وينطبق عليها وصفنا لها بدقة ومصداقية متناهية تماثل انعكاس الأجسام على الصور.

النقد عند الإمام الطبري بما يخالف المنقول والمعقول

قال الطبري في أول تفسير سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة:١]، بعد أن ذكر فيها أحد عشر قولا في تأويلها ثم أعقبها بالتحليل والتوجيه قائلا:

(١) ينظر: مقدمة جامع البيان ١/ ٧.

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

"والصـواب في تأويل ذلك عندي أن كل حرف منه يحوي ما قاله الربيع [١]، وما قاله سـائر المفسرين غيره فيه – سوى ما ذكرت من القول عمن ذكرت عنه من أهل العربية: أنه كان يوجه تأويل ذلك إلى أنه حروف هجاء، اسـتغني بذكر ما ذكر منه في مفاتيح السـور، عن ذكر تتمة الثمانية والعشـرين حرفا من حروف المعجم، بتأويل: أن هذه الحروف ذلك الكتاب مجموعة لا ريب فيه – فإنه قول خطأ فاسـد، لخروجه عن أقوال جميع الصـحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين من أهل التفسير والتأويل.

فكفى دلالة على خطئه شهادة الحجة عليه بالخطأ مع إبطال قائل ذلك قوله الذي حكيناه عنه – إذ صـار إلى البيان عن رفع (ذلك الكتاب) – بقوله مرة إنه مرفوع كل واحد منهما بصـاحبه، ومرة أخرى إنه مرفوع بالراجع من ذكره في قوله: (لا ريب فيه) ومرة بقوله: (هدى للمتقين)، وذلك ترك منه لقوله: إن (ألم) رافعة (ذلك الكتاب)، وخروج من القول الذي ادعاه في تأويل (ألم ذلك الكتاب) وأن تأويل ذلك: هذه الحروف ذلك الكتاب.

فإن قال لنا قائل: وكيف يجوز أن يكون حرف واحد شـاملا الدلالة على معان كثيرة مختلفة؟ قيل: كما جاز أن تكون كلمة واحدة تشـتمل على معان كثيرة مختلفة، كقولهم للجماعة من الناس: أمة ، وللحين من الزمان: أمة ، وللرجل المتعبد المطيع لله: أمة، وللدين والملة: أمة، وكقولهم للجزاء والقصـاص: دين، وللسـلطان والطاعة: دين، وللتذلل: دين، وللحسـاب: دين في أشـباه لذلك كثيرة يطول الكتاب بإحصـائها – مما يكون من الكلام بلفظ واحد، وهو مشـتمل على معان كثيرة، وكذلك قول الله جل ثناؤه: (ألم) و(ألر)، و(ألمص)، وما أشـبه ذلك من حروف المعجم التي هي فواتح أوائل السـور كل حرف منها دال على معان

---

(١) وقول الربيع وهو ابن أنس هو: أن هذه الأحرف من التسعة والعشرين حرفًا دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسـم من أسـمائه، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة قوم وآجالهم. (ينظر: جامع البيان ١/ ٢٠٨) .

شتى، شامل جميعها من أسماء الله ﷻ وصفاته ما قاله المفسرون من الأقوال التي ذكرناها عنهم وهن مع ذلك، فواتح السور كما قاله من قال ذلك"[1].

وقد لاحظنا من المثال السابق طريقة عالية في الدقة والإنصاف وتحري الصواب من الأقوال سأرتبها كما فعل ﷺ مع تفسير هذه الآية من أول سورة البقرة، ويمكننا تقسيم ذلك المنهج التفسيري في النقد إلى مرحلتين:

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

- المرحلة أولى: يمكننا الاصطلاح عليها باسم "مرحلة التحليل".
- المرحلة ثانية: يمكننا أن نطلق عليها مسمى "مرحلة النقد والتقويم والاختيار".

المرحلة الأولى: (التحليل والتحرير)

أولا: من خلال المثال السابق فقد قام الطبري ﷺ بذكر أقوال المفسرين في تأويل الأحرف المقطعة من أوائل سور القرآن الكريم واستيفائها.

ثانيا: كان الطبري ﷺ دقيقا في ذكره الأقوال حيث إنه لم يكتف بذكر الأقوال مرسلة بل عزا كل قول إلى قائله بإسناده.

ثالثا: حاول الطبري بشكل أو بآخر جمع جميع الأقوال في الآية المذكورة وقد ذكر أحد عشر قولًا في الآية.

رابعا: قام الطبري -ﷺ- بعد أن ذكر الأقوال بعزوها إلى قائليها، وهذا الأمر غاية في الأمانة العلمية وكان من الممكن أن يكتفي بذكر مثل هذا الأمر إلا أنه -ﷺ- فعل ما يدل على صدق تحريه للصواب وطلبه للجواب، بل فاق مرحلة الأمانة المجردة في النقل إلى الأمانة في التوجيه والتعبير والتبرير؛ ذلك أنه قام بتوجيه كل قول من تلكم الأقوال وحمله على محمله الحسن منه، فقد قال بعد أن ذكر كل تلك الأقوال: "ولكل قول من الأقوال التي قالها الذين

(١) ينظر: جامع البيان ١/ ٢٢١.

وصفنا قولهم في ذلك، وجه معروف، فأما الذين قالوا: "ألم"، اسم من أسماء القرآن، فلقولهم ذلك وجهان: أحدهما...."[١] إلى آخر ما ذكر.

ثم أخذ يوجه هذه الأقوال كلها ويبين وجه الصواب فيها حتى انتهى إلى آخرها، وليس معنى ذلك أنه يصححها كلها ولكنه أراد بيان وجهة قول أصحابها بهذه الأقوال، وإلا فإن كلامه لم يخل من نقد لهم مباشر وغير مباشر ، فأما المباشر فهو في إطلاقه الألفاظ الدالة على الامتعاض أو الاعتراض مثل قوله : (زعموا) أو (يزعمون) وأما غير المباشر فبذكره لتعدد الأقوال واختلافها واختلاف القائلين بها على تأولين أو أكثر ومثال ذلك ما ذكره عند توجيه قول القائلين: بأن ألم (وأخواتها) من حروف حساب الجمل دون ما خالف ذلك من المعاني، فإنهم قالوا: لا نعرف للحروف المقطعة معنى يفهم سوى حساب الجمل، وسوى تهجي قول القائل: "ألم".

وقالوا: غير جائز أن يخاطب الله جل ثناؤه عباده إلا بما يفهمونه ويعقلونه عنه، فلما كان ذلك كذلك، وكان قوله: "ألم" لا يعقل لها وجه توجه إليه، إلا أحد الوجهين اللذين ذكرنا فبطل أحد وجهيه، وهو أن يكون مراد بها تهجي"ألم" – صح وثبت أنه مراد به الوجه الثاني، وهو حساب الجمل؛ لأن قول القائل:"ألم" لا يجوز أن يليه من الكلام"ذلك الكتاب"، لاستحالة معنى الكلام وخروجه عن المعقول إن ولي"ألم""ذلك الكتاب"، واحتجوا لقولهم...."[٢] أهـ.

قلت: وذكر حديثا ضعيفًا يستدل به أصحاب هذا القول فيما ذهبوا إليه .

خامسا: ثم أعقب رحمه الله تلك الخطوات السابقة بذكر القول الصواب في تفسير الآية بقوله:

(١) ينظر: المصدر السابق ١/ ٢١١ .

(٢) ينظر: جامع البيان ١/ ٢١٤ .

"والصـــواب في تأويل ذلك عندي: أن كل حرف منه يحوي ما قاله الربيع[1]، وما قاله ســـائر المفسرين غيره فيه.." .

المرحلة الثاني: (النقد والتقويم والاختيار)

بعد المرحلة الســـابقة والتي أســـميناها مرحلة التحليل والتي يبين فيها الطبري الأقوال والمذاهب التفســـيرية في الآية وذكر توجيهها وأدلة كل فريق ووجه الأقوال التي دعتهم لتبني تلك الأقوال، ومن ثم يختار هو قولًا يتجنب فيه ما لحظه على الأقوال الأخرى ويحرص فيه عادة على جمع شـــتات تلكم الأقوال المروية، ولا يكتفي بهذا غالبا بل عقب ذلك كله بأهم مرحلة وهي مرحلة النقد والتقويم وبيان دقيق أغلاط المفســـرين، وهنا تحديدا يأتي دور المرحلة الثانية من مراحل المدرسة الطبرية في النقد التفسيري، وقد اتخذ فيها كما في المرحلة الأولى عدة خطوات يمكن إجمالها بالتالي:

أ- بيان بطلان القول المخالف بمختلف العبارات الدالة عليه فتارة يقول: فاســـد وتارة خطأ وتارة باطل وهكذا.

ب- بيان سبب بطلان هذا القول وذكر تلك الأسباب ومن تلكم الأسباب التي ذكرها:

١. خروجه عن أقوال الصحابة .

٢. خروجه عن أقوال التابعين.

٣. خروجه عن أقوال أصحاب الفن أهل التفسير.

(١) والربيع هذا هو الربيع بن أنس البكري الحنفي البصـري، صـدوق روى له أصـحاب السـنن الأربعة توفي ١٤٠ هـ ، وقيل: ١٣٩ هـ والقول الذي اختاره هو " أن هذه الأحرف من التسعة والعشرين حرفًا دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة قوم وآجالهم".(انظر جامع البيان ١/ ٢٠٨)

٤. بيان ما يلزم منه كل قول من هذه الأقوال المخالفة.

إذا ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن الإمام الطبري يخطو قبل نقده لتفسير هذه الآية خمس خطوات كل خطوة منها تعد مدرسة في علم أصول النقد وأطره، والتي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار وتدرس على أنها من أسس النقد أو على أساس كونها من مقدمات النقد التي يجب أن يأخذها الناقد بعين الاعتبار، وهذه الخطوات التي اتخذها الطبري لها محاسن محمودة الأثر سيأتي ذكرها في حديثنا حول أثر الطبري على غيره من المفسرين المعاصرين وسنرى أن غيره من المفسرين قد سار على مثل هذه الطريقة زاد من زاد ونقص من نقص، إذا فخلاصة ما يمكننا أن نقول من أنه زبدة منهجية الطبري في النقد على الترتيب التصاعدي:

١) سرد الأقوال في تفسير الآية.

٢) عزو الأقوال إلى أصحابها.

٣) بيان وجه كل قول أو دليله مهما كان نوعه نقليا كان أو عقليا.

٤) ترجيح أحد الأقوال مع بيان السبب الموجب لذلك.

٥) إيراد الإشكالات على الأقوال الأخرى عند القول بها وما يلزم منها.

٦) قد يسير إلى محاولة الجمع بين الأقوال أو بين قولين وإنزال ذلك منزلة المتفق عليه، وحكاية قول

المفسرين على أنه إجماع متى وافق قول الجمهور النص الصحيح، أو العقل الصريح، إلا أنه في الحقيقة وعند التحقيق لا يكون إجماعا، فينتبه إلى ما يحكيه في هذا الباب على أنه من الإجماع وليس الأمر كذلك، وليس معنى ذلك أن يرد كل ما يحكيه من الإجماع هذا غير مراد بل المقصود التنبيه على ما عنده في باب حكاية الإجماع.

وميزة هذا التفريق أنه يقول في مثل هذا النوع -الذي ليس هو إجماع على الحقيقة- أن يصدر بعبارة (إجماع الحجة منهم) ويذكر قبله الخلاف، وأما غيره فيذكر الإجماع دون ذكر هذه العبارة غالبا بحسب ما استقرأت مع عدم ذكره لوجود خلاف.

المبحث الرابع

أثر منهجه النقدي على التفاسير الأخرى

لقد كان لابن جرير الطبري التأثير البالغ والواضح إن صح التعبير على كثير من المفسرين ويمكن أن نعدهُ الأب الروحي أو العلمي لجميع المفسرين إن صح التعبير، ولعلي لا أكون مجازفا إذا قلت: إنه لا يعرف تفسير كتب بعد عهد ابن جرير إلا وقد استفاد منه ونقل عنه إما نصا أو معنى وهذا لا ينكره إلا مكابر ولا ينفيه إلا معاند، وسبب ذلك والله أعلم أن ابن جرير قد جمع في تفسيره بين التفسير المأثور النقلي والتفسير بالرأي العقلي، أما على صعيد التفسير المأثور فإنه قد نقل التفسير لمن بعده بأسانيده وهذا ما جعل جميع من أتى بعده عالة عليه.

وقد يقول قائل: يمكن للمفسر الاقتصار على ما هو موجود في دواوين السنة، فأقول إن مثل هذا لا يوفي بالغرض فإن من الروايات ما لانجده إلا عند الطبري في تفسيره ويرويها بأسانيد صحاح، وحتى التي تروى بأسانيد ضعيفة لها فائدة من جهة بيان مخرجها فيعرف مصدر ضعفها ويجتنب، ولذلك نجده يروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أو عن غيره من الصحابة أكثر من رواية في تفسير الآية الواحدة لكثرة ما نُقل في تفسيرها، وهذه الطريقة حفظت لنا اختلاف الصدر الأول من المفسرين في التفسير.

فنجد أن غالب من فسر القرآن قد اعتمد على ما نقله الطبري فهذا الزمخشري الذي لا يصرح بنقله في مواضع عن الطبري كما اتضح لي من تتبعه، فنجده يورد الأقوال في التفسير وعند تفحصها أو تتبعها نجدها مما ساقه الطبري في تفسيره إلا أن الزمخشري يحكيه دون زمام أو خطام، ودون إشارة إلى مصدره، فمثلا في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤].

قال الزمخشري: وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه تلاها فقال: لئن آخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى حتى سمع نشيجه، فذُكر لابن عباس فقال: يغفر الله لأبى عبد الرحمن، قد

وجد المسلمون منها مثل ما وجد فنزل: (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة:٢٨٦][١]، وهذه الرواية أوردها ابن جرير في تفسيره بإسناده قائلا: حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر قال، سمعتُ الزهري يقول في قوله:(وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ)، قال: قرأها ابن عمر فبكى وقال: إنا لمؤاخذون بما نحدِّث به أنفسنا! فبكى حتى سُمع نشيجه، فقام رجل من عنده فأتى ابن عباس فذكر ذلك له، فقال: رَحم الله ابن عُمر! لقد وَجَد المسلمون نحوًا مما وَجدَ، حتى نزلت:(لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ) [البقرة:٢٨٦][٢].

وهذا مما أخذه الزمخشري عنه دون عزو إليه هذا مع تقدم الزمخشري نوعا ما بقرون عدة على غيره، مع اختلاف منهجه عن الطبري في أصول التفسير ومفارقته لابن جرير وغيره في الاعتقاد وغيرها من المسائل، فإذا كان هذا هو حال من خالفه فكيف بمن وافقه في أصوله وقواعده ومنطلقاته في علم التفسير؟! لا شك أنه أكثر تشبها ونقلا واستفادة وتقليدا، بل إنني لم أجد في حد علمي من المفسرين من يعزو قولا معتدا به في التفسير إلا وهو عند الطبري حكايته وروايته!.

وما يهمنا في هذا المقام هو بسط وبيان صورٍ مِن تأثُّر المتأخرين من المفسرين لما يذهب إليه ابن جرير من النقد والتقويم والاختيار، واستعانتهم بما يورده في تفسيره من روايات وحجج وبراهين نقلية وعقلية في رد الأقوال الرديئة في التفسير، فمن تلكم الصور ههنا أيضا:

ما استند إليه محمد رشيد رضا -رحمه الله- هو وشيخه محمد عبده من كلام ابن جرير في

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ١/ ٣٣٠.

(٢) ينظر: جامع البيان ٦/ ١٠٧ .

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

التعقيب على تفسير البعض[١] لقوله -تعالى-: (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ) [البقرة:١٢٤] على أن المقصد الخصال العشر التي من الفطرة وهذا حكاه الجلال في تفسيره ، وهذا الأمر لم يرق للشيخ محمد عبده فكان من ضمن استدراكه عليه قوله: "إن هذا من الجراءة الغريبة على القرآن، ولا شك عندي في أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزؤا، وأي سخافة أشد من سخافة من يقول: إن الله – تعالى- ابتلى نبيا من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور، وأثنى عليه بإتمامها، وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماما للناس وأصلا لشجرة النبوة، وإن هذه الخصال لو كلف بها صبي مميز لسهل عليه إتمامها ولم يعد ذلك منه أمرا عظيما؟ والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبر الله – تعالى – به ولا ينبغي تعيين المراد به إلا بنص عن المعصوم.

فأرسل إليه من ينتقده في هذا الاختيار مخبرا له أن هذا المعنى مروي عن ابن عباس فاشتد عليه نكير الشيخ وأحال رده على الشيخ محمد رشيد رضا الذي قال: "فكتبت إليه – وكان صديقا لي – كتابا لطيفا كان مما قلته فيه على ما أتذكر: إننا لم نر أحدا من المفسرين ولا من أئمة العلماء التزم موافقة ابن عباس في كل ما يروى عنه، وإن صح سنده عنده، فكيف إذا لم يصح؟ وقد قال الشيخ محمد عبده: إنه يجل ابن عباس عن هذه الرواية ولا يصدقها، ولما كانت مثل هذه الشبهة أو الطعن في أي عالم بأنه خالف فلانا الصحابي أو الإمام فلانا مما يروج في سوق العوام، نذكر هنا ما قاله شيخ المفسرين ابن جرير الطبري بعد ذكر رواياته المختلفة في تفسير (الكلمات) عن ابن عباس وغيره من مفسري السلف ونقله عنه ابن كثير –رحمه الله– مقرا له:

"قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر،

(١) ويقصد بذلك الجلال إذ يقول في تفسيره: " قيل: هي مناسك الحج، وقيل: المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وفرق الشعر وقلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء "(تفسير الجلالين ص٢٦).

وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، (قال): ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم لهالمراد منه ، وهو عين ما ذهب إليه شيخنا وهذه الحجة يدلي بها ابن جرير في مواضع كثيرة من تفسيره وهي الحق"[1].

فكما نرى هنا أن رشيد رضا يستعين بما يفسر به ابن جرير على رد قول غيره مع أنه منقول عن ابن عباس والذي رواه هو ابن جرير نفسه؛ إذ يقول رحمه الله في تفسيره: "حدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس: (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ) قال، ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء"[2].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم ١/ ٣٧٤ .

(٢) ينظر: جامع البيان ٢/ ٩، وهذه الرواية صحيحة، فكيف يقول محمد رشيد رضا: إننا لم نر أحدا من المفسرين ولا من أئمة العلماء التزم موافقة ابن عباس في كل ما يروى عنه، وإن صح سنده عنده، فكيف إذا لم يصح؟! وهذه الرواية صحيحه صححها العلامة المحقق أحمد شاكر وقال في تحقيقه لجامع البيان: "وهذا الإسناد صحيح أيضًا، وهو في تفسير عبد الرزاق الصنعاني بهذا الإسناد، وكذلك رواه أبو جعفر في التاريخ ١/ ١٤٤، من تفسير عبد الرزاق بهذا الإسناد، وكذلك رواه الحاكم ٢: ٢٦٦، من طريق ابن طاووس عن أبيه، به. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وذكره ابن كثير ١/ ٣٠١، وكذلك ذكره السيوطي ١/ ١١١، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه"اهـ ، فلا أدري لم أشار رشيد رضا إلى ضعفه، ولعل الذي دفع رشيد رضا لذلك قول الطبري:" ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته. " فظن أنه لم يصح عن ابن عباس ومقصود الطبري فيما صح عن النبي ﷺ فاشتبه الأمر عليه والله أعلم، وأما عدم جزم ابن جرير بالمعنى الذي ذكره ابن عباس أو الأخذ به وهو صحابي ويحتمل أنه أخذه عن النبي ، هو تعدد

إلا أنه لم يكن يسلم لكل ما يقوله أو يرويه، ففي ذكر قصة يوسف وذكر الروايات في سبب مكوثه في السجن نقل عن ابن جرير رواية جعلت كثيرًا من المفسرين يذهب إلى القول بها وقد أخرجها الطبري. قال رشيد رضا: "إنهم ما قالوا هذا إلا لأنهم رووا فيها حديثا مرفوعا على قلة جرأة الرواة على الأحاديث المرفوعة المسندة في التفسير، وهو ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير الآية عن سفيان بن وكيع عن عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال: قال النبي ﷺ: "لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله".

ثم بعد أن ذكر هذه الرواية بين بطلانها قائلا: "ونقول: إن هذا الحديث باطل، قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث ضعيف جدا ؛ سفيان بن وكيع ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضا، وقد روي من الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن والله أعلم"(١)، وعليه فنستطيع أن نقول بأن تأثير ابن جرير واضح على رشيد رضا كأحد المفسرين وهذا التأثير بطبيعة الحال يمكن وصفه بالتأثير الإيجابي؛ إذ إنه يأخذ مما قاله مع النظر وليس بإمرار كل ما يرويه أو يحكيه الطبري .

وممن تأثر بمنهجية الطبري من المتأخرين ابنُ باديس الذي صرح في مقدمة تفسيره بقوله: "وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة تفسير (ابن جرير الطبري)، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته

الروايات فقد روي عن ابن عباس نفسه أكثر من قول وقد اختلف تلاميذه على المعنى المراد فهذا سبب عدم ترجيح قول دون آخر .

(١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم ١٢/ ٢٦٠.

لأولى الأقوال عنده بالصواب"[1] إلا أن ابن باديس لم يكن ينقل منه المعنى صراحة، بل يذكر المعنى دون عزوه لأحد إلا أننا عندما نتتبع أقوال ابن باديس نجدها بعينها عند الطبري بأسانيدها.

وأما تأثره بابن جرير فهو محدود في جانب حكاية الأقوال دون توسع ودون غيرها من الأمور التي يذكرها الطبري كالنقد والتوجيه، فلم يكن ابن باديس ينقل أقوال الطبري في نقد غيره بل كان يرد على مخالفيه بما حباه الله من علم وفهم، ولا يعني هذا عدم استفادته منه، بل يدلنا على ذلك قوله السابق في مقدمة تفسيره: "وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب"، فبين أنه اطلع على تلكم الترجيحات والتي عادة ما يذكر الطبري فيها أولى الأقوال عنده بالصواب.

وقد بين في بعض المواضع سبب إعراضه عن الأقوال الأخرى في الآية، فدل ذلك على تأثره به، إلا أن ابن باديس قد أوتي شخصية قوية مستقلة تنحو به إلى عدم التقليد ومن تأمل عبارته السابقة في ترجيحات الطبري: "وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب" علم معنى ما أقول، حتى إن غالب ما ينقل من روايات الطبري إنما يأخذ ما صح فقط دون غيره من الضعيف على طريقة ابن كثير رحم الله الجميع.

وممن تأثر بالطبري كذلك صاحبنا ابن عاشور الذي ذكر كما سيأتي في مقدمة التحرير والتنوير تأثري بابن جرير فقال -رحمه الله-: "وقد اختلفت أقوالهم في معاني آيات كثيرة اختلافا ينبئ إنباءً واضحا بأنهم إنما تأولوا تلك الآيات من أفهامهم كما يعلمه من له علم بأقوالهم، وهي ثابتة في (جامع البيان) ونظرائه، وقد التزم الطبري في تفسيره أن يقتصر على ما هو مروي عن الصحابة والتابعين، لكنه لا يلبث في كل آية أن يتلخص ذلك إلى اختياره منها وترجيح بعضها على بعض بشواهد من كلام العرب، وحسبه بذلك تجاوزا لما حدده من الاقتصار على

(١) ينظر: مقدمة تفسيره ١/ ٤١ .

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

التفسير بالمأثور وذلك طريق ليس بنهج .

وقد سبقه إليه بقي بن مخلد ولم نقف على تفسيره، وشاكل الطبري فيه معاصروه، مثل ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم، فلله در الذين لم يحبسوا أنفسهم في تفسير القرآن على ما هو مأثور مثل الفراء وأبي عبيدة من الأولين والزجاج والرماني ممن بعدهم، ثم الذين سلكوا طريقهم مثل الزمخشري وابن عطية"[١].

وقفة مهمة:

لا أوافق ابن عاشور فيما ادعاه من أن الطبري قد يخرج عن أقوال الصحابة والسلف لا سيما أئمة التفسير، وأزعم أنه لا يعرف له قول خرج فيه عما ينقل في تفسيره عن أقوال الصحابة والتابعين وبيان ذلك من عدة أوجه مجملة:

أولا: ابن جرير يروي كل ما وقع له بإسناد عن النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم وأئمة التفسير .

ثانيا: إذا وجد ابن جرير قولا فيه حديث ثابت عن النبي ﷺ فإنه يذهب إليه دون الالتفات إلى غيره بعكس من ذكرهم ابن عاشور والذين قد يرجحون ما وافق المذهب العقدي أو الفقهي كالزمخشري وغيره.

ثالثا: أن ابن جرير عقد فصلا في مقدمة كتابته بعنوان: (ذكر بعض الأخبار التي رُويت بالنهي عن القولِ في تأويل القرآن بالرَّأي)[٢]، فكيف يقول ابن عاشور بعد ذلك عنه: "وحسبه بذلك تجاوزًا لما حدده من الاقتصار على التفسير بالمأثور وذلك طريق ليس بنهج"!، ثم حبذا لو ضرب مثالا يوضح فيه مقصوده ولا أظنه يجد شيئا .

رابعا: ذكر الطبري في مقدمته[٣] كلامًا عظيمًا له ليت ابن عاشور قرأه جيدا ووعاه قبل أن يحكي ما قال، وبين في كلامه أن التفسير على ثلاثة أوجه:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١/ ٣٣.

(٢) ينظر: جامع البيان ١/ ٧٧.

(٣) ينظر: مقدمة جامع البيان ١/ ٩٢.

الوجه الأول: ما استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحد من خلقه .

الوجه الثاني: ما لا سبيل إلى معرفته إلا ببيان رسول الله ﷺ .

الوجه الثالث: ما يعلم من كلام العرب الذي نزل القرآن بلغتهم.

وهذه الثالثة هي التي عليها مدار الكلام الذي ذكره ابن عاشور وليته تثبت مما قال قبل أن ينقم على ابن جرير ويظهره بمظهر المتناقض وسأنقل كلام ابن جرير في مقدمته حتى يعلم غلط ابن عاشور على الطبري –رحم الله الجميع–.

يقول –رحمه الله– بعد أن نقل الأوجه الثلاثة التي نقلتها لك مختصرة: "فأحقُّ المفسرين بإصابة الحق – في تأويلِ القرآن الذي إلى عِلم تَأويله للعباد السبيلُ– أوضحُهم حُجة فيما تأوّل وفسَّر، مما كان تأويله إلى رسول الله –ﷺ– دون سائر أمته من أخبار رسول الله –ﷺ– الثابتة عنه: إمَّا من جهة النقل المستفيض، فيما وُجِد فيه من ذلك عنه النقلُ المستفيض، وإمَّا من جهة نقل العدول الأثبات، فيما لم يكن فيه عنه النَّقلُ المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته؛ وأصحُّهم برهانًا – فيما ترجَم وبيّن من ذلك ممَا كان مُدركًا علمُه من جهة اللسان: إمّا بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإمّا من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائنًا من كان ذلك المتأوِّل والمفسِّر، بعد أن لا يكون خارجًا تأويلُه وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة"(١).

فقد بين أن ذلك كله راجع إلى موافقة أو مواطأة ما قاله السلف في التفسير ليس بخارج عنهم وهذا بطبيعة الحال على العكس مما يذكره الزمخشري وأصحاب اللغة الذين ربما خالفوا المنقول بحجة اختلاف ما روي عن السلف فابن جرير يذكر الأقوال ويرجح بينها على ضوء اللغة والشعر...الخ، وهو لا يخرج عن تلكم الأقوال بحال من الأحوال بمعنى أنه يوظف اللغة وملحقاتها في الترجيح بين أقوال السلف في ذلك كله مع التفريق بين ما ينقله

(١)مقدمة تفسير الطبري ١/ ٩٣ .

الطبري وغيره مما ينقل ما لا وجه له كالواقدي والثعلبي وغيرهما[١]، فبان غلط ابن عاشور فيما نسبه من تناقض لابن جرير وبان الخطأ في كلامه، ومتى ما استطاع أحد أن يأتي بمثال يوافق ما ذهب إليه ابن عاشور وأطلقه عن ابن جرير فعلى الرأس والعين ولا أظنه يجد.

وبعيدًا عما ذكره عن الطبري فأقول إن ابن عاشور قد بان تأثره بمنهجية ابن جرير في النقد ، وهذا واضح لمن تأمل بالنظر تفسيره (التحرير والتنوير) من جهة نقل مئات الروايات التي يرويها ابن جرير في التفسير ففي قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة:٢٨٢]، نقل ابن عاشور قولين عن العلماء من قال بالاستحباب وهم جهور العلماء ، ومن قال بالوجوب وهم بعض المفسرين والفقهاء من التابعين والظاهرية والطبري، ثم ساق أوجه قول كل فريق بما قال ثم رجح ما قاله الطبري قائلا:

"والأرجح أن الأمر للوجوب فإنه الأصل في الأمر، وقد تأكد بهذه المؤكدات، وأن قوله: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ الآية رخصة خاصة بحالة الائتمان بين المتعاقدين كما سيأتي – فإن حالة الائتمان حالة سالمة من تطرق التناكر والخصام– لأن الله –تعالى– أراد من الأمة قطع أسباب التهارج والفوضى فأوجب عليهم التوثق في مقامات المشاحنة، لئلا يتساهلوا ابتداء ثم يفضوا إلى المنازعة في العاقبة، ويظهر لي أن في الوجوب نفيا للحرج عن الدائن إذا طلب من مدينه الكتب حتى لا يعد المدين ذلك من سوء الظن به، فإن في القوانين معذرة للمتعاملين"[٢].

وبإلقاء نظرة سريعة على جامع البيان في تأويل الآية وحجته في هذ الاختيار نجده ذكر

(١) وأنا ناقم في ذلك على د. أحمد نصري في المبحث الرابع من الفصل الثاني من الباب الثاني في دراسته للدكتوراة والتي بعنوان: (المنهج النقدي في جامع البيان أصوله ومقوماته) لكونه لم يتناول هذه النقطة بالبيان خاصة أنه ذكر كلام ابن عاشور ومر عليه مرور الكرام (ينظر: المنهج النقدي في جامع البيان له ص١٤٠، طبعة دار ابن حزم ، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣/ ١٠٠.

القولين في المسألة، أحدهما الوجوب ورواه الطبري عن الضحاك، والآخر أنه كان واجبا ثم نسخ وذكره عن الحسن وابن زيد والشعبي وعن ابي سعيد الخدري وفيه مقال[1]، ثم قال:

"والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله ﷻ أمر المتداينين إلى أجل مسمى باكتتاب كُتُب الدين بينهم، وأمر الكاتب أن يكتب ذلك بينهم بالعدل، وأمر الله فرض لازم، إلا أن تقوم حجة بأنه إرشاد وندب. ولا دلالة تدل على أن أمره جل ثناؤه باكتتاب الكتب في ذلك، وأن تقدمه إلى الكاتب أن لا يأبى كتابة ذلك، ندب وإرشاد، فذلك فرض عليهم لا يسعهم تضييعه، ومن ضيعه منهم كان حرجا بتضييعه"[2].

وانظر إلى الاستدلالين في السرد والتعقيب والنقد تعلم تأثر ابن عاشور بما يذكره ابن جرير، بل وبطريقة نقده للتفسير وبالله التوفيق.

ومن المتأثرين بالطبري كذلك محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله– الذي تأثر به في الأخذ دون التقيد بمتابعته كحال المفسرين الآخرين ممن ذكرنا، وإنما يسرد ما يرويه وما يحكيه من باب ما يحكى عن غيره بل إن المدقق في تفسير الشنقيطي يلمس فيه حس النقد العالي، والذي سنأتي على شيء من ذكره عند الحديث عن تفسيره فهو ينقد ما يذكر بعد استقصاء القول فنجده يورد ما يحكيه عن المفسرين، ثم يأتي عليه بالتفصيل والترجيح على ما يراه مناسبا للصواب إلا أن تأثره بابن جرير يتضح لنا أولا في تحرره من التقليد دون التوجيه، واتباعه ما صح عن السلف في التفسير والترجيح بين أقوالهم، وبالرغم من ذلك فهو لا ينفك في النقل عن تفسيرين وهما الطبري، والقرطبي.

أما الأول فلأنه يروي عن الصحابة والسلف وأئمة التفسير في اختلاف التأويل، وهو مع ذلك لا

---

(١) في إسناده محمد بن مروان العقيلي قال عنه ابن حجر: "صدوق له أوهام" ينظر: (تقريب التهذيب برقم: ٦٢٨٢ ص٥٠٦).

(٢) ينظر: جامع البيان ٦/ ٥٣ .

يقبل ما يرويه بل غالبا ما ينقد إسناده متى كان ضعيف الإسناد كما في تفسيره لقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [التوبة:٣٤]، وإيراد مسألة وجوب الزكاة في عروض التجارة.

فقد أورد حديث: "سمرة بن جندب الفزاري ﷺ، قال: "أما بعد فإن رسول الله ﷺ، كان يأمرنا أن نخرج الصدقة مما نعد للبيع" وتناوله بالنقد[1]، والذي يتتبع الشنقيطي في نقده للأحاديث للوهلة الأولى يظنه من المحدثين لسعة علمة وإحاطته بعلوم الحديث وعلم العلل والرجال، والثاني أعني القرطبي ينقل عنه لإيراده الأقوال على نسق الفقه المقارن بين المذاهب المختلفة، فأراد ﷺ الجمع بين الحسنيين فأكثر بالنقل عنهما .

وإلى هنا أزعم أنني قد بينت قدرا لا بأس به من المنهجية النقدية عند الإمام الطبري في تفسيره وشيئا من معالم هذه المنهجية وأثبت تأثر كثير المفسرين بتفسير محمد بن جرير الطبري، مما يبين صحة مقولة: (المفسرون عيال على الطبري)، وقولهم: (الطبري شيخ المفسرين) وبالله التوفيق .

والحمد لله رب العالمين

(١) ينظر: أضواء البيان للشنقيطي ٢/ ١٣٧ .

فهرس المصـــادر

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣ ﻫ)، طبعة: دار الفكر، بيروت – لبنان.

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة ابن العديم العقيلي (ت٦٦٠هـ)، بتحقيق: د. سهيل زكار، طبعة دار الفكر .

(٣) تاريخ بغداد وذيوله، أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ"الخطيب البغدادي" ت ٤٦٣ ﻫ، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، بتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الطبعة الأولى: ١٤١٧ ﻫ.

(٤) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ﻫ ١٣٩٣)، طبعة الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ ﻫ.

(٥) تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت ﻫ٨٦٤)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ ﻫ)، طبعة دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى.

(٦) تفسير القرآن الحكيم (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤ ﻫ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

(٧) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ﻫ٧٧٤)، بتحقيق: سامي بن محمد سلامة، طبعة دار طيبة، الطبعة: الثانية ١٩٩٩م – ١٤٢٠هـ.

(٨) تقريب التهذيب، بتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.

(٩) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠ ﻫ)، بتحقيق أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة:

الأولى، ٢٠٠٠م – ١٤٢٠ هـ .

(١٠)الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت،الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧ .

(١١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، لأحمد بن مصطفى بن خليل، أبو الخير، عصام الدين طاشْكُبْري زَادَهْ (ت ٩٦٨ه)، طبعة دار الكتاب العربي – بيروت.

(١٢)المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار إحياء التراث العربي – بيروت

(١٣)طبقات الفقهاء الشافعية، عثمان بن عبدالرحمن المعروف بـ "ابن الصلاح" (ت ٦٤٣ هـ)، محيي الدين علي نجيب، طبعة دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٢م .

(١٤)طبقات الفقهاء، إبراهيم بن علي الشيرازي ت ٤٧٦ هـ، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور ت ٧١١ هـ، بتحقيق: إحسان عباس، طبعة دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: ١٩٧٠م.

(١٥)طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدنهوي من علماء القرن الحادي عشر، بتحقيق: سليمان بن صالح الخزي، طبعة مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

(١٦) غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة، خلف بن عبد الملك ابن بشكوال (٥٧٨ هـ)، بتحقيق د. عز الدين علي السيد ومحمد كمال الدين عز الدين، طبعة: عالم الكتب، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ .

(١٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت٥٣٨ هـ)، طبعة: دار الكتاب العربي – بيروت،الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

(١٨) المنهج النقدي في جامع البيان، طبعة دار ابن حزم ، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى: ٢٠١٢ – ١٤٣٣هـ).

(١٩) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، للشيخ الأديب محمد الطنطاوي رحمه الله، بتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل، مكتبة إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م.

(٢٠) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، لأحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، (ت ١٠٣٦ هـ)، بتحقيق: د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، طبعة دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	**المقدمة**	٤٠
٢	**المبحث الأول: التعريف جرير الطبري**	٤٣
٣	اسمه ونسبه ومولده	٤٣
٤	مؤلفات ابن جرير الطبري	٤٥
٥	**المبحث الثاني: منهجه في التفسير**	٤٧
٦	**المبحث الثالث: منهجه في النقد**	٥٢
٧	**المبحث الرابع: أثر منهجه النقدي على التفاسير المتأخرة**	٦٠
٨	**فهرس المصادر والمراجع**	٧١
٩	**فهرس الموضوعات**	٧٤